محاضرات مقياس:

التواصل الحضاري بين الجزائر والعالم العربي والإسلامي

- **أ. عبدالباسط قلفاط**
- **قسم العلوم الإنسانية**
- **السنة الأولى ماستر – تاريخ الجزائر الحديث**

المحاضرة الأولى:

الرحلة: أنواعها وأهميتها

تعتبر الرحلة من أهم قنوات التواصل الحضاري في البلاد العربية والاسلامية، وهي عموما تتميز عن رحلات الأوروبيين الى البلاد الاسلامية بكونها – الرحلة العربية الاسلامية- ترتبط بالجانب الديني والعلمي أساسا، في حين في الغرب هي رحلات استكشافية ذات بعد مغاماراتي، هدفها استكشاف المجهول ومعرفة الآخر.

أنواعها: الرحلة عند المسلمين رحلتان: علمية وأخرى حجية أو حجازية، الأولى يقوم بها العلماء وطلبة العلم يقصدون التعلم والاستزادة من العلم وطلب الاجازات، فيخرجون من قراهم ومدنهم قاصدين الحواضر الكبرى أو العلماء المشهورين، وعادة ما تصاحب هذه الرحلة المكتبات والمصنفات ذهابا وايابا، وكثرت هذه الرحلات في الجزائر في الفترة الوسيطة والحديثة نحو تونس وبلاد المشرق العربي وبدرجة أقل المغرب الأقصى والاندلس في فترة سابقة، وهذا بسبب توفر المراكز العلمية العالية بصفة مستمرة في عدد من الحواضر بتلك البلدان والأقاليم، مثل القرويين بفاس والزيتونة بتونس والأزهر بالقاهرة.

ولكن هذا لا يعني أن الحواضر الجزائرية لم تستقبل طلبة العلم فقد اشتهرت بجاية الحمادية بتوافد طلاب العلم والعلماء عليها من المشرق والمغرب وحتى من الأندلس، وكذالك حاضرة توات وتلمسان وقسنطينة، ولكن لم تكن بصفة دائمة ولقرون عديدة.

أما الرحلة الحجية فطابعها ديني وان دخلتها الدوافع العلمية والتجارية وحتى الاستكشافية أحيانا، وتتميز عن الرحلة العلمية بكونها تنتقل في مجموعات وقوافل كثيرة، وأحيانا بطابع رسمي، كركب الحج الذي ينطلق من الحواضر الكبرى وعادة ما يكون المسؤول عنه أحد العلماء الأعيان، وأبرز مثال ركب حج قسنطينة الذي كان يرأسه بصفة رسمية في بعض السنوات الشيخ عبد الكريم الفكون خلال القرن 16، وأحيانا تلتقي قوافل الحج مع بعضها وتكمل الطريق معا فتزداد الفائدة وتعم، وكانت طرق قوافل الحج معروفة في بلاد المغرب الإسلامي في الشمال والهضاب العليا والجنوب وحتى في حواضر الصحراء الكبرى، وقد ترك لنا عدد من الرحالة أخبار مهمة عن القرى والمدن التي تمر منها قوافل الحج، مثل أبو سالم العياشي والحسين الورثلاني.

أهميتها ودورها في التواصل الحضاري: الرحلة لها عدة وظائف ولعل أهمها الاخبار عن الغير وعرض ونقد لأوضاع الشعوب والمجتمعات التي مر بها الرحالة، هذا بغض النظر ان كانت بدافع العلم أو الحج أو التجارة أو غير ذلك، ورغم ما تتصف به الرحلة من خصائص "الامتاع والمؤانسة" والحديث عن "غرائب ما يقع" فهي تعتبر مصدرا أساسيا في نقل ونقد أوضاع المجتمع العربي الاسلامي، وعن طريق هذه الأداة تقدم مساهمة فعالة

في التواصل والتكامل الحضاريين بين أقطار وشعوب البلاد الاسلامية، سواء عندما تنقل تجارب جهة الى أخرى أو عندما تنتقد أوضاعا اجتماعية وانحرافات دينية ثقافية، فتصحح هذه وتثمن الأخرى.

عندما يتجاوز الرحالة حالة الاخبار عن اوضاع المجتمعات التي زارها والحواضر التي مر بها، والكلام على مختلف المظاهر السياسية والاجتماعية والثقافية التي شاهدها الى حالة الناقد لتلك الأوضاع والمظاهر، قياسا لبعضها البعض أو تقييما لها بالرجوع الى القيم الحضارية ومرجعية هذه الامة التي تنتمي اليها كل تلك المجتمعات المتواجدة في افريقيا وآسيا خاصة، يكون هنا الرحالة يخبر عن "وعي ثقافي حضاري" يتسم به ويدل عن المسؤولية الحضارية التي يحس بها؛ واذا كانت الرحلة تعتبر مصدرا هاما للدراسات التاريخية والجغرافية، خاصة لما تحتويه من معلومات عن المدن والمجتمعات ونظم عيشها وتقاليدها وعلاقاتها، فهي كذلك تتضمن نقدا لأوضاع تلك المجتمعات وأداة لنقل الخبرات والتجارب الناجحة، فترفع بذلك صاحبها الى مصاف المصلحين المجددين والفلاسفة المفكرين، الذين يتميزون بدعوتهم للاصلاح المعتمد على القيم والمستفيد من ابتكارات مختلف الشعوب والمجتمعات.

ان عملية نقد الرحالة لاوضاع البلدان التي مروا بها منطلقها تكوينهم العلمي والديني وطول التجربة بالأساس، وهدفهم اصلاحي، وجلهم كانوا من فئة العلماء وأصحاب طرق صوفية، لهم تآليف ونشطوا في عدد من الفضاءات العلمية والفكرية، وتواصلوا مع نظرائهم في البلاد الاسلامية فأجازوا وأجيزوا، وان الدارس في التراث الاسلامي عموما وفي مسار الشخصيات العلمية ليجد قوة التكوين والنشاط لدى العلماء الرحالة أكثر من غيرهم، وهو يقابل ما يعرف بالتكوين العصامي والتعلم في المدارس والاحتكاك بعدد من الشيوخ والعلماء في مختلف الأمصار ومن عدد من المذاهب والنحل، ومن هنا جاءت وصايا العلماء لطلاب العلم بضرورة الارتحال للحصول عليه، وفي هذا يقول الامام الشافعي رحمه الله:

تغرب عن الأوطان في طلب العلى وسافر ففي السفر خمس فوائد
تفرج هم واكتساب معيشة وعلم وآداب وصحبة ماجد

ويقول ابن خلدون عن دور الرحلة في تكوين العلماء: "في أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم، والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما ورسوخا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها"

لذلك يجب على الباحث تتبع قضايا الاصلاح ومظاهر التجديد عند العلماء ليس في كتب الرحلة فقط ولكن في جميع مؤلفاتهم ومناظراتهم العلمية، وهذا ما وجدناه عند الشيخ عبدالكريم الفكون في كتابه "منشور الهداية في من ادعى العلم والولاية"، فهو وان لم يكتب رحلة فقد قام بعدة رحلات حجازية واطلع على مختلف الأوضاع الثقافية واختبر عقلية العلماء والعامة في الجزائر وخارجها؛ كما نقد العلماء الأوضاع مباشرة من خلال المناظرات والجواب على الأسئلة المطروحة عليهم؛ ولعل أبرز مثال العلامة ابن خلدون وما تضمنته مقدمته في أسباب ومظاهر القوة والضعف في المجتمعات العربية وغيرها.

من أبرز النماذج على دور الرحلة في تكوين العلماء وكيف خلدت ذكراهم ومنافعها التي تجاوزت صاحبها نجد الشيخ عبد الرحمن الثعالبي والعالم ابن مرزوق الحفيد، فالأول جمع بين الرحلات العلمية والاستكشافية والحجازية، وكانت سفرياته متعددة الاتجاهات ومتنوعة المصادر، رحل في سبيل العلم والمعرفة، وقضى حياته في التعرف على أحوال المجتمعات التي زارها، ولذلك تجاوزت مساهماته الجوانب العلمية الى المجالات الاجتماعية والسياسية والدينية، وهوما جعل منه "داعية خير وجهاد، عمليا في أفكاره وتصرفاته، بالاضافة الى كونه رجل دين وصلاح وزهد وتصوف".

ان مساهمة الرحلة في التكوين العلمي والمعرفي قد تجاوزت صاحبها الى طلاب العلم والباحثين، حيث ساعدت المؤرخ والأديب والجغرافي وغيرهم، وعرفتهم بتطور المنهج عند عدد من العلماء في مختلف العلوم والمعارف، لقد كانت الرحلة بكل أنواعها وبمختلف أصحابها الذين مارسوها سواء كانوا علماء أو رجال طرق الصوفية أو تجارا من أهم أدوات التواصل الحضاري بين أقطار العالم الاسلامي، لتبادل الخبرات والتجارب في مختلف الفنون والعلوم، والاطلاع على أوضاع بعضهم البعض فيتناولونها بالتقييم والنقد، استنادا الى نفس القيم الحضارية وهو ما جعل ما يكتبه العلماء المصلحين في هذا المجال مقبول ومرحب به في كل المجتمعات الإسلامية، وهو ما فتح آفاقا واسعة أمام العلماء وطلبة العلم في الاستفادة من جهود وقدرات الآخرين.

بهذا تكون الرحلة شرطا من شروط اكتمال المعرفة وانتقال الحضارة، هذا الانتقال الذي ارتبط بانتشار الدين الاسلامي في كل الاتجاهات، وجعل الرحالة وهم العلماء الفقهاء لا يحسون بالغربة أينما انتقلوا في البلاد العربية الاسلامية، أو على الأقل بين النخب العلمية الفكرية وفي مختلف الفضاءات العلمية والثقافية. وبهذه الجهود المتراكمة عبر القرون قدمت الرحلات مساهمة كبيرة في التواصل الحضاري بين مجتمعات الأمة العربية الاسلامية، تواصلا حضاريا أفقيا وعموديا، ومن خلاله تنقل التجارب من منطقة لأخرى وتنتقد السلوكات السيئة وتقدم الاصلاحات الضرورية لمعالجة أمراض الأمة، وهو ما يجعل المجتمع الاسلامي مجتمعا متحركا بفضل مجموعة من العوامل أهمها الرحلة، ومن مظاهر ذلك التحرك الايجابي التكامل بين الشعوب وذوبان الفروقات الثقافية والاجتماعية، والأكثر من ذلك توحيد المرجعية القيمية لدى شعوب الأمة الاسلامية المترامية الأطراف، وقد قطعت هذه العملية أشواطا خلال القرون الهجرية الأولى ثم تراجعت تدريجيا خلال الفترة الحديثة نتيجة مجموعة من العوامل الداخلية والخارجية.

مصادر ومراجع للموضوع

- لبصير سعاد، التفاعل الثقافي والعلمي بين الرحالة الجزائريين ونظرائهم من بلاد المشرق خلال العهد العثماني، مجلة قضايا تاريخية العدد، 8، 2017
- أبوالقاسم سعدالله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، عالم المعرفة، الجزائر، 2011.
- أبو القاسم سعدالله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر،ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1981

- موسى شرف، أخبار العلم والعلماء بأرض الحجاز من خلال الرحلات المغربية، مجلة قضايا تاريخية، ع 7، 2017
- كتاب ملتقى "الرحلة الدينية والعلمية بين المغرب والمشرق الإسلاميين ودورها الحضاري...". جامعة خميس مليانة.
- بوشنافي محمد، هجرة علماء الجزائر الى المغرب الأقصى وبلدان المشرق العربي خلال العهد العثماني، مجلة المواقف، مج4، ع1، السنة 2009.

المحاضرة الثانية

الإجازات العلمية ودورها في التواصل الحضاري

ارتبط موضوع الإجازات بالعلماء والرحلات، فهي عادة ما تمنح من العلماء لطلبة العلم، وقد يتحصل عليها الشيخ أو طالب العلم أثناء الرحلة الحجازية ولكن الغالب أن تتحقق الرغبة من خلال الرحلات العلمية، أثناء هجرة العلماء في هجرة مؤقتة أو دائمة سواء كانت بدافع علمي أو سياسي أو اقتصادي.

مفهومها: تعرّف الإجازة على أنها شهادة كفاءة أو تأهيل يستحق بها المجاز لقب الشيخ أو الأستاذ في العلوم أو المصنفات المجاز فيها، وينتقل لأجلها طلاب العلم من أوطانهم الى بلاد بعيدة، لا سيما تلك التي توجد بها مؤسسات علمية عالية كالزيتونة والقرويين، كما كان علماء الجزائر يجيزون غيرهم في الجزائر وخارجها في مختلف التخصصات المعرفية والدينية، وقد أجاز أحمد بن عمار سنة 1205ه مفتي الشام محمد خليل المرادي، كما فعل أحمد الزروق البوني وعبدالقادر الراشدي وابن العنابي ويحي الشاوي لصالح شيوخ وعلماء المشرق، وقد أورد عبدالحي الكتاني في كتابه "فهرس الفهارس" عددا من

علماء الجزائر الذين أجازوا غيرهم في المغرب والمشرق. وبعض الباحثين يفرق بين اجازات فردية لعلم أو مصنف ويسميها بـ"السماعات" وأخرى تسمى شهادات تمنح للطالب الذي يستذكر عن شيخه عدة مصنفات أو دروس[1].

ولكن مع مرور الزمن أصبحت بعض الاجازات تمنح مجاملة دون تحقيق في كفاءة طالبها من الناحية العلمية والخلقية، بل وصلت الى أن تمنح بالمراسلة والوكالة، وتعطى لبعض طالبيها في عدد من العلوم والكتب دون أن تستذكر أمام الشيخ أو العالم المجيز، وكانت النتيجة هي انخفاض مستوى طلبة العلم والعلماء، ولقد تعرضت هذه العملية لنقد من عدد من العلماء كما فعل الشيخ عبدالكريم الفكون في القرن 16 الذي نقد ظاهرة التساهل في منح الاجازات ولا سيما عند المشارقة، وكذلك ابن عبد البر عاب على بعض الشيوخ هذا السلوك في جامع بيان العلم وفضله فقال:" وتلخيص هذا الباب أن الاجازة لا تجوز الا للماهر بالصناعة حاذق بها يعرف كيف يتناولها، وتكون في شيئ معين معروف لا يشكل اسناده، فهذا هو الصحيح من القول في ذلك والله أعلم" .

ويمكن أن نلحق بالاجازات المراسلات التي كانت بين العلماء، كمراسلة الشيخ طاهر المشرفي المعسكري مع علماء مدينة الجزائر وبعث لهم أحد شروحه. وللاجازة شروط حسب العلماء تضمنتها نصوص الاجازة وهي أربعة:المجيز – المجاز له – المجاز- وصيغة الاجازة، وقد تضمنتها مثلا اجازة ابن شقرون الفاسي للشيخ الطاهر المشرفي المعسكري "هذا وقد أجزت المستدعي...أمد الله بالعرفان وبالفتح ملكته فيما قرأ عليّ من الكتب المسطورة وغيرها مما يحفظ ويستدعى، اجازة رابية عامة شافية على قانونها المعروف وشرطها المقرر المألوف، حاثا له على تقوى الله العظيم في التعلم والتعليم..."[2]، وشروط الاجازة حسب ما تتضمنه مختلف الاجازات أربعة هي:المجيز- المجاز له- المجاز- صيغة الاجازة.

دورها في التواصل الحضاري: رغم كل ما قيل عن الاجازات فقد كانت وسيلة لكسب العلم وللتواصل التعليمي والعلمي والحضاري، بين شعوب ومجتمعات الأمة الاسلامية، فعن طريقها تتطور المناهج والبرامج ومن ثم التعليم، خاصة عندما يتعدد العلماء، والاجازة كالرحلة والتأليف ترجع أهميتها في الربط بين أقطار وأوطان الأمة الواحدة باعتبارها لا تتأثر بالاضطرابات السياسية والحروب العسكرية، فرغم الحروب التي كانت تسمم العلاقات الرسمية بين الجزائر وتونس في بعض السنوات الا أن الرحلات والمراسلات العلمية لم تتوقف خاصة منها هجرة طلبة العلم الجزائريين إلى الزيتونة؛ بل لعبت تلك الوسائل دورا هاما في رسم صورة العلاقات الثقافية والسياسية والاجتماعية بين البلدين، وكثيرا ما تولى العلماء الوظائف السياسية والعلمية والاجتماعية خارج ديارهم؛

---

[1] - صلاح الدين المنجد، اجازات السماع في المخطوطات القديمة، مجلة معهد المخطوطات، مجلد 1، ج2، 1955، ص، 232.

[2] - تقي الدين بوكعبر، صور من التواصل الثقافي والعلمي بين الجزائر والمغرب خلال العهد العثماني: اجازة عامة من الشيخ شقرون الفاسي المغربي الى الشيخ الطاهر المشرفي الجزائري، قضايا تاريخية، ع 04، سنة 2016، ص، 67-68. بعض الباحثين يقدر الشروط بـــ عشرة أنظر: صلاح الدين المنجد، المرجع السابق، ص 234-235.

لقد كانت الإجازات صورة من صور التبادل الثقافي والتنوع العلمي، اذ مع مرور الزمن تتعدد مصادر ومنابع العلوم مما يضفي انفتاحا في العقول واندماجا بين النخب والمجتمعات، وتكاد لا تخلو حاضرة أو مدينة من عالم أجاز أو أُجيز في فن من فنون العلم والمعرفة من داخل الوطن وخارجه، لذلك فأساس التواصل والتكامل بين أقطار العالم العربي والإسلامي هو الدين والعلم، وكانت النخب الدينية والعلمية أساس عملية التلاقح الحضاري.

عادة ما يرافق منح الإجازات مجالس العلم والدرس والمناظرة، حيث يتعدد العلماء في المجلس الواحد خاصة عندما يحضره البعض من خارج البلدة، والنتيجة هي ربط علاقة علمية ودينية بين العلماء ويتبادلون المصنفات والتآليف حيث يقوم الطلبة بشرح كتب مشايخهم، وقد تحدث الورثلاني وأبي راس الناصري عن أهمية ودور هذه المجالس في تونس وبلاد المشرق، إضافة الى أن هذا التواصل يمتد الى أجيال وأوطان في بلاد المغرب والمشرق، فعمر المانجلاتي درس العلم عن شيوخ درسوا بالمغرب والمشرق، وعبدالقادر المجاوي درس بالجزائر والمغرب ودرّس بمصر والجزائر، والكثير من علماء الجزائر عرفوا واشتهروا في المغرب والمشرق كأبو العباس احمد الونشريسي وابنه عبد الواحد وأحمد المقري وابن العنابي ومصطفى الكبابطي وعبدالقادر المجاوي وغيرهم.

لقد كانت الاجازات أداة أساسية في الحركة العلمية والثقافية بين العلماء، فهي ذات دلالة على التاريخ الثقافي في البلاد العربية وسبيل لتبادل المعارف بين الجزائر وبلاد المشرق، وهي وسيلة للاطلاع على ما عند الغير من الأسانيد والروايات وقد صاحب تلك الإجازات نقل الكتب والمناظرة والتنقيب، فهي – الإجازة - من أهم آليات التواصل العلمي والحضاري بين الجزائر والمشرق، كما عبرت عن إضافات حضارية جلبت عن طريق الاتصال والتواصل، وجاوزت أحيانا المجال العلمي والديني إلى الفضاءات الاقتصادية والاجتماعية.

ترجع أهمية الإجازات عموما إلى مجموعة من الفوائد أهمها أنها نموذج للتثبت العلمي الذي كان يتبعه العلماء، وتكشف على ثقافات الأولين ومصادرهم ومستوى تكوينهم، وهي مصدر للتراجم الشخصية، وقد يرد اسم عالم واحد في عدد من الإجازات، وكذلك هي مصدرا لمعرفة الحواضر العلمية والمدارس ورحلات طلاب العلم وحركة تنقلهم،

المراجع

- مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال الرحالة المغاربة.
- احميدة عميراوي، قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث.
- تقي الدين بوكعبر، صور من التواصل الثقافي والعلمي بين الجزائر والمغرب خلال العهد العثماني:اجازة عامة من الشيخ شقرون الفاسي المغربي الى الشيخ الطاهر المشرفي الجزائري، قضايا تاريخية،ع 04، سنة 2016، صص، 62-71.

- صـلاح الـدين المنجـد، اجـازات السـماع فـي المخطوطـات القديمـة، مجلـة معهـد المخطوطات، المجلد1، ج2، سنة 1955.
- سعاد لبصير، التفاعل الثقافي والحضاري بين الرحالة الجزائريين ونظرائهم من بلاد المشرق خلال العهد العثماني، مجلة قضايا تاريخية، ع 08، سنة 2016، صص، 94-114.

المحاضرة الثالثة:
مساهمة الصحراء في البعد الحضاري للجزائر في الفترة الحديثة والمعاصرة

مقدمة

الجزائر قطر واسع وممتد الارجاء، ولكل منطقة فيه مساهمة ثقافية وحضارية، تصب على اختلاف أنواعها وأزمانها في بوتقة الثقافة الجزائرية والحضارة العربية الاسلامية، كما كانت للجزائر مساهمة ثرية في نشر الاسلام وحضارته في افريقيا، وساهمت الصحراء الجزائرية في الفترة الحديثة والمعاصرة في مواجهة مجموعة من التحديات الحضارية التي واجهت البلاد، وشملت هذه المواجهة عدة مجالات واتخذت عدة أشكال. وستتركز هذه المحاضرة حول مساهة الصحراء في مواجهة التحديات التي واجهت الجزائر في الفترة المعاصرة.

الموقع الجيو- حضاري للصحراء الجزائرية

يمكن التعرف على تلك المساهمة من خلال العودة الى آثار الصحراء العمرانية والعلمية والدينية، وقد عرف أهلها بإنشاء المؤسسات الدينية والعلمية منذ فجر الاسلام فظهرت المساجد والكتاتيب لنشر التعليم بكل مستوياته، ثم ظهرت في مرحلة لاحقة الزوايا التي قامت بنشر اللغة العربية في افريقيا قبل أن تصبح القاعدة الخلفية لمواجهة الحضارة الغربية في العهد الاستعماري.

ان الظروف والعوامل الطبيعة قد ميزت أهالي هذا الاقليم الواسع بمميزات شخصية أهلتهم للأدوار الحضارية والعلمية، أهمها الصبر والأناة والحكمة والرتابة والهدوء، وهي ميزات لا تجتمع في غيرها من الاقاليم، ولا عجب أن تكون الصحراء والفراغ الفسيح مصدر عطاء للعلماء والحكماء والأنبياء، لأنها تمكن العقلاء والعلماء من الارتباط بمصادر الوحي ومواجهة تحديات الارض.

أعطت الطبيعة الصحراوية الوقت الكافي للقيام بالذكر والعبادة بمعانهما الواسعة على الوجه الكامل، خاصة وأنها بعيدة عن ضغط وضوضاء المدن وعن مغرياتها، وتساعد هذه الطبيعة على التأمل والتفكير، وكان من أوائل ما نزل من الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم:"قل انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا..."

لقد شجع هذا المناخ المشرفين على الجمعيات الدينية الاسلامية التي ظهرت في الصحراء ابتداء من القرن 15 على انشاء العديد من الزوايا التابعة لهم في منطقة الصحراء، لهدف نشر الدين الاسلامي وخدمته وتعميقه في النفوس ثم التعليم ومؤسساته، كانت تلك الزوايا عبارة عن مجموعة من الأبنية لتحفيظ القرآن الكريم والتعليم واقامة الطلبة ونزول المسافرين وتضم مسجدا اضافة الى خدماتها الاجتماعية.

ان الحواضر الصحراوية تفاعلت تفاعلا ايجابيا مع العالم الاسلامي في النواحي الروحية والثقافية والفكرية باعتبارها جزءا منه، ولكنها تميزت في الفترة المعاصرة عن حواضر الشمال أن اللغة العربية بها سلمت من التأثر باللغة الفرنسية.

المراكز الحضارية والثقافية في الصحراء الجزائرية

ساهمت الصحراء عبر عدة قنوات في هذه المعركة، مثل العلماء والتجار والمرابطين في المرحلة الاولى، وما زالت البحوث والدراسات تكشف عن هذه المساهمة الايجابية؛ واهم الحواضر الصحراوية التي كانت لها مساهمة معتبرة في تلك المواجهة: توات، وادي سوف، ورقلة، تقرت، الهقار، وادي ميزاب بسكرة والاغواط وغيرها، وقد تعرض عدد من العلماء والشيوخ والرحالة للعطاء الحضاري لهذه المنطقة مثل المغيلي والدرعي والعياشي والورثلاني. وكما كانت الحواضر الصحراوية مركزا أماميا لنشر الاسلام وتعليم علومه بجنوب الصحراء الكبرى خلال الفترة الحديثة، فقد أصبحت قاعدة خلفية للمواجهة مع الاستعمار عسكريا وحضاريا منذ نهاية ق 19.

مساهمة وادي سوف: حسب أ.سعدالله فان وادي سوف عامرة بالمساجد والزوايا والكتاتيب والمكتبات، كما وجدت به بعض فروع الطرق الصوفية كالرحمانية والتيجانية، وهي على صلة مباشرة خاصة في جوانبها العلمية والدينية والثقافية بتونس وزيتونتها، لقد كانت الحياة الاقتصادية تضطر أهل سوف الى البحث عن مصادر الرزق خارج بلادهم، فيتوجهون الى تونس وقسنطينة خاصة، وقد اندمجت مساهمة علماؤهم في مساهمة علماء تونس والجزائر خاصة اذا استقروا خارج منطقتهم.

وأهم العلماء أبناء المنطقة الذين ساهموا في النشاط التعليمي والحضاري في كل الجزائر نجد: محمد الأمين العمودي وخليفة بن حسن القماري، ابراهيم بن عامر صاحب كتاب الصروف، الشيخ السالمي الزقيمي صاحب المشاهدات... والشيخ الطاهر العبيدي وأخيه أحمد، والشيخ حمزة بوكوشة الصحفي والاديب والمصلح والشاعر الكبير محمد العيد وأبوالقاسم سعدالله وغيرهم. وغطت اهتماماتهم اللغة والعلوم الدينية والتاريخ،

وشاركوا بقوة في الحركة الاصلاحية خاصة التي قادتها جمعية العلماء، كما أصبحوا اطارات وباحثين في التربية والتعليم والدراسات التاريخية.

مساهمة منطقة الزيبان: كانت "مدينة بسكرة ذات الطبيعة المجردة الصافية وحيث الناس البسطاء والهدوء الشامل" (حسب سعدالله). ونتيجة الى مجموعة من العوامل الحضارية والاستراتيجية كانت منطقة الزيبان قبلة الكثير من العلماء والرحالة والمؤرخين والباحثين مثل ابن خلدون والعياشي والورثلاني وأبو عبيد الله البكري وأبو القاسم الزياني والحسن الوزان وغيرهم

وكانت هذه المنطقة تضمن سهولة عملية الانتقال الى المستوى العالي في جامعة الزيتونة على طلبة النواحي الشرقية، اضافة الى المساعدة المادية التي يتلقونها في تونس، ويذكر سعدالله أن التعليم الاولي كان أكثر انتشارا في قسنطينة منها في الوسط والغرب ماعدا تلمسان.

أهم مجالات نشاط التيار الاصلاحي بمنطقة الزيبان هي: الديني – الاجتماعي والتربوي والتعليمي وأهم الشخصيات التي مثلته الطيب العقبي ومحمد خير الدين والأزهري الشيخ أحمد سحنون من الزاب الغربي (ليشانة)، ومحمد العيد المولود في عين البيضاء وتلقى تعليمه الاولي داخل العائلة ثم انتقل الى بسكرة بوابة الصحراء ومنها الى تونس. والكاتب والشاعر والصحفي السعيد الزاهري، والشاعر والناقد والأديب أبوالقاسم خمار.

أما الوسائل والفضاءات المستعملة من طرف تلك الشخصيات وغيرها فنجد التآليف والرحلات والمراسلات والاجازات، وفي الفترة الاستعمارية اعتمد العلماء على النوادي والجمعيات والصحافة والمدارس والزيارات، وتركزت الاهداف في الفترة المعاصرة على مواجهة السياسة الاستعمارية في الثقافة والتعليم خاصة.

مساهمة منطقة توات: الزوايا الموجودة بتوات هي: القادرية- التيجانية- الوزانية – الكرزازية – البكائية - الكنتية والسنوسية، وبلغ عدد الزوايا اليوم بمنطقة توات حسب احصاء وزارة الشؤون الدينية 22 زاوية، كما استمر تدفق الفقهاء التواتيين الى تمبكتو في الفترة الحديثة فتولوا الافتاء والتدريس بتمبكتو وأزواد وجنوب ليبيا ومنهم محمد بن أحمد التواتي الذي توفي سنة 1296.

كانت الزاوية السنوسية من أهم الزوايا التي قادت المقاومة الثقافية والدينية في الصحراء الكبرى، مثل فرعها في توات نهاية القرن 19 الشيخ محمد التواتي الذي شغل منصب قاضي وكاتب الشيخ محمد المهدي رئيس الزاوية الام في جغبوب، وقد ظهرت هذه الزاوية في الصحراء كرد فعل لنشاط الفرنسيين، ووصلت المواجهة بينهما الى تهديد المصالح الاستعمارية والتبشيرية، حتى أعلنت فرنسا ان المشرفون على هذه الزاوية في عين صالح هم أعداؤها الحقيقيون.

من أشهر علماء توات في الفترة المعاصرة:أحمد ديدي والعلامة الراحل محمد بلكبير والحاج حسان بالزجمير والشيخ محمد باي بلعالم.

سيدي م بلكبير: ولد سنة 1911 ببودة جنوب مدينة أدرار(25كم)، حفظ بها القرآن ثم اخذ مبادئ العلوم الشرعية واللغوية على يد عمه وحفظ متون العقيدة، ثم انتقل الى قصر تمنطيط حيث أكمل تعليمه على يد شيخه أحمد ديدي وتبحر في علوم التفسير والنحو والحديث والفقه، ثم رحل الى مدينة تلمسان للاستزادة، وعاد الى مسقط رأسه وأسس زاويته في بداية الاربعينات، واتخذت زاويته منهجا وسطيا واضحا وتخرج عليه مئات الطلبة من الجزائر وإفريقيا.

الشيخ محمد باي بن عبد القادر بلعالم: ولد بأولف سنة 1930 تلقى تعليمه الاول بمسقط رأسه ثم تتلمذ على يد العلامة بلكبير، ويعتبر أحد كبار علماء المذهب المالكي بالمغرب العربي، حيث أسس زاويته المسماة "مصعب بن عمير" والتي تخرج منها مئات الطلبة، كما اشتهر بتنظيم حلقات ودروس بالحرم المكي الشريف، وترك أزيد من ستين مؤلفا في علوم القرآن والفقه ومنها خمسة مؤلفات في التاريخ عن منطقة توات وشيوخها وزواياها وكانت وفاته سنة 2009.

المؤسسات التعليمية والثقافية والدينية

تعتبر الزوايا والمدارس القرآنية حاضنة ثقافية ولغوية حفظت هوية المجتمع الجزائري على مر العصور، ورافدا حضاريا هاما ساهم في ترسيخ القيم الدينية، وكانت الطرق الصوفية والعلماء أهم الركائز التي حاربت الجهل بمختلف أشكاله ووقفت في وجه الاستعمار خلال الفترة الاستعمارية لعبت تلك المؤسسات أدوارا مركبة جمعت بين الجهاد السياسي والعسكري والحضاري.

الخاتمة

جل هؤلاء العلماء والشيوخ كان ينتظرهم بعد تخرجهم الواجب الوطني وميدان الصراع الثقافي والحضاري أثناء وبعد الاحتلال، فدخلوا حقل العمل الوطني من أوسع أبوابه وهي الثقافة واللغة والدين. خاصة وأن موجة التفرنس والثقافة الغربية كانت قد أثرت في الشمال أكثر من حواضر الداخل، ذلك التأثير الذي لم يقتصر على النخبة والعلوم فقط ولكن حتى وصل حتى الى الحياة الشعبية، وطال عهده وتنوعت وسائله وتعددت جبهاته.

يمكن اعتبار الدور الذي قامت به مختلف المؤسسات الدينية والثقافية في الصحراء الكبرى ضد الهجمة الاستعمارية الحديثة هو دفاع عن قواعدها ومبادئها من جهة، وتقاسم للأدوار في هذه المواجهة الحضارية مع الأقاليم الشمالية التي أوصلت لها الدين والعلوم ووجهتها الوجهة الحضارية الصحيحة. يمثل نشاط تلك المؤسسات العلمية والثقافية وآثار العلماء تراثا مهما وتجارب يمكن الاستفادة منها للتعامل مع الظروف الجديدة، ويجب ترك

الخلافات القديمة وتتبع المعطيات والفلسفات الجديدة، باتخاذ كل الوسائل المتوفرة، حتى لا يبقى جزءا كبيرا من قدرات الوطن والأمة تحت استغلال جهات خارجية معادية لها.

المصادر والمراجع

- أبو القاسم سعدالله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ج2.
- فرج محمود فرج، اقليم توات خلال القرنين 18 و19، ديوان المطبوعات الجامعية، 1977، الجزائر.
- أبو القاسم سعد الله، آراء وأبحاث في تاريخ الجزائر، ج1.
- أبو القاسم سعدالله، أفكار جامحة، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989، الجزائر.
- الشيخ المهدي بوعبدلي، جوانب من الحياة الثقافية في الجزائر في العهد العثماني، جمع وتقديم عبدالرحمان دويب، عالم المعرفة، 2013، الجزائر.
- شبيرة سفيان، الحركة العلمية بمازونة، الحوار المتوسطي، مج 05، ع 07، صص 211- 226.